

فلسفة العتب والاعتذار في شعر المتنبي

سندس محمد عباس السعيد

الخلاصة :

يعد العتب والاعتذار من ابرز سمات الإنسان العربي ، وخاصة نفسية ملحة ، وشعرية متوهجة في قصائدهم ، وقد احتفت بكتب الحماسة الشعرية ومختاراتها بالكثير من قطع العتب وأخرى في الاعتذار من الأحبة والأصدقاء . أو الأمراء والملوك ، فالإنسان العربي يكتم غيظه . ويخفي سخطه كما الغيوم في سماء الروح حتى إذا تكاثفت أمطرها مرة واحدة حينئذ تصفو النفس وتصحو الروح وقد يقدم اعتذاراً " عما بدى منه . وقد تجسدت فلسفة العتب والاعتذار في قدرتها الجمالية - الفنية ، وفي مضامينها الفكرية الرؤيوية بشعر المتنبي . ولشد ما عتب وسخط المتنبي على شخصيات منهم ما كان يمثل الند والخصم ، ومنهم من كان يكن له الشاعر الود والوفاء ولاسيما عتبه على سيف الدولة الذي كانت مسحته تشكل صورة لشكوى المغلوب على أمره من قبل الخليفة ، ولما نزل :  
واحر قلباه ممن قلبه شيم

ومن بجسمي وحالي عنده سقم

هي صورة الاستغاثة الصارخة ، لأنه لا يتمكن ان يكون محبوباً خصماً له ، ولا شك ان الحسد في زوال نعمة المتنبي في حب سيف الدولة هو الذي أوجع المشاعر الخليفة عليه عندما أوغروا قلبه ضد سيد الشعراء عصره .

وإمطار شعر الاعتذار كانت مصورة للحالة النفسية عند المتنبي مثلما كان سخطه في العتب ، وكان تصوير المتنبي الشعري تصويراً " مفلسفاً " لطباع الدنيا وغلرها وكثيراً " ما عتمد الى الحكمة والحجة المقنعة على إن الدنيا لا تبقى على حال ، وان كل واطئ - دنيء يمكن ان تمتحنه الدنيا عندما يصبح ذا مال وجاه ، ولكن فرصة الحياة لا تمنح بإسراف ، وعلى المرء ان لا يخدع بكرم الدنيا ، وهكذا يأخذنا المتنبي إلى ضفاف مسألة الوجود والمصير ، والحق والحب والصدقة . عبرت دالاته وانشغالاته الحكيمة ، من خلال القدرة على التصوير والتمثل المجسد إبداعياً .

(1)

المتنبي بين نفسيته وشاعريته

من القضايا المقررة التي لا تحمل الجدل هي أن أسلوب الكاتب ينم عن شخصيته وعن نفسيته وذلك أن أسلوب الادبي قلما يقتصر على التعبير عن فكرة تعبيراً محدداً دقيقاً لا يزيد عنها ولا ينقص ، بحيث لا يختلف القراء والسامعون في فهم مقصوده أي اختلاف .

إن هذه الدقة في التعبير هي التي فيها قياس المعنى ويختلف الكتاب والشعراء في مدى نجاحهم في إخفاء مشاعرهم الكامنة حينما يتعرضون لأمر تختلف مع تلك المشاعر . ومن اقدر الناس على إخفاء هذه الكوامن النفسية (( ابو الطيب المتنبي )) الذي كان يضطر في بعض الاحيان الى إظهار الرضا وهو غاضب ، الى المديح وفي نفسه ان يهجو الى الاعتذار وفي اعتقاده انه يحب ان يعتذر اليه . ولكن اعتذار ، غير اعتذار الخائف المضطهد [ ومثاله عندما دس هجاء وعلى لسانه في الحسين بن إسحاق فعاتبه ، فاعتذر بقوله :

أتنكر يا ابن اسحق إخائي

وتحسب ماء غيري من انائي

أنطقُ فيك هجراً بعد علمي

بأنك خيرٌ من تحت السماء

واكره من ذباب السيف طمعا

وامضى في الامور من القضاء

(1)

وما استغرقت وصفك في مديحي

فانقص منه شيئاً بالهجاء

تطيع الحاسدين و انت مرء

جعلت فداءه ، وهم فدائ

وهاجي نفسه من لم يميز

كلامي من كلامهم هراء2

وإنَّ عدم التوافق بين شخصين قد يؤدي الى سوء فهم كان أحد هؤلاء المختلفين ذا شأن او سلطة او صاحب قرار سياسي يستطيع ايداء الذي يخالفه بحق وباطل كما حصل معه حينما سجن لأسباب اختلف فيها (( وعلى العموم فالعلاقة بينه وبين الذي سجنه كانت علاقة ضد ، والا ان المتنبي استعطفه لأجل مصلحة وهي خروجه من السجن الذي كاد يؤدي بحياته ))3 .

وهو خلاف للعتاب الذي يحصل بين المحبين والأصدقاء الذي لا يصل إلى درجة الضدية ، وإنما هو عتاب لطيف غرضه ارجاع المودة وحسن المعاملة .

فمن قصيدة قالها ضمن هذا الغرض مستعظفا الوالي ابن علي الهاشمي ، ملتمسا الافراج عنه بعد سجنه4 :

دُعوتكَ عندَ انقطاعِ الرجا

ء والموتُ مني كحبل الوريذُ

(2)

دعوتكَ لما يراني البلاء

وأوهن رجلي ثقل الحديدُ 5

فمن خلال استقراء هذه الأبيات نجد أنَّ المتنبي لم يطلب الاستعفاف إلا بعد أن وصل إلى حاله تستوجب ذلك فنجد الآخر ثانوياً مهماً لولا الحاجة إليه .

وللمتنبي في هذا الصدد مقدره نادرة حقاً أعانته عليها شاعرية ممتازة ، وعبقريه فذة ، حتى أن كثيراً منا يمر بما يقول هذا الشاعر العملاق في مثل هذه المناسبات دون أن ينتبه الى خفايا نفسه ، ومع ذلك نراه يجمع بين غرضين قلما نجده في أشعار ما قبله ألا وهما (( العتب والاعتذار )) ويكون هذا الربط في قصيدة واحدة الذي اصبح سمة من سماته فنحن نعلم قصته مع (( سيف الدولة )) الذي كان يغدق عليه العطايا نظير قصيدتين او ثلاث قصائد في السنة .

ومع ذلك كان المتنبي ، وهو الذي كان يرى أن فواده من الملوك وان كان لسانه من الشعراء – يحتجز نفسه – ويبطئ في مدائحه لسيف الدولة . وكان هذا يشق على الامير ، فيحضر من الشعراء من كانوا من غير شك دون (( المتنبي )) منزلة ، فقد رافق الحساد المتنبي منذ صباه ومطالع حياته الشعرية الاولى6 يصاحبونه في كل مكان لا يفارقونه ، أينما حل مكونين عصابة قوية متماسكة في حلب ايام سيف الدولة .

ويتقدم ابو الطيب للامير بقصيدته المشهورة التي تسمى تارة عتاباً ، وتسمى تارة اخرى اعتذارا ، وتعدّ احياناً مدحاً . وكل الذي يعنينا أن المتنبي كان غاضبا ، ولكنه بنفس الوقت كان مضطراً لمدح سيف الدولة وترضيته . فقد اعلن عن سخطه في عبارات واضحة صريحة على حين اعلن عن رضاه في عبارات مثقلة بالهموم محملة بالغضب . (( وكل ذلك يشير الى أنه يملك طاقة ديناميكية هائلة ، لم تأتلف

(3)

وظروف حياته وإحداث زمانه فظلت حبيسة تبحث عن منفذ ، فلا تجده ، وتتمثل في تناقص يتخذ أشكالاً متنوعة من اقبال وإدبار على أمر بعينه . وبين مديح وهجاء لشخص بذاته ، وحل وترحال ، وحدة وانفعال ، ورفعة وانخفاض ، وقبول هبات لا تتفق ونوازع الكبرياء في نفسه ))7. فلننظر في هذه القصيدة التي ستكون هي الوعاء الثر في دراستنا لفلسفته في العتب والاعتذار معا ، والذي يعد أن الاضطراب الذي عنده كان بقصد ارادة لغرض في نفسه . وقد ورد في شرح العكبري أن المتنبي : (( قال يعاتب سيف الدولة ، وانشدها في محفل من العرب ، كان سيف الدولة اذا تأخر عنه مدحه شق عليه ، واحضر من لا خير فيه ، وتقدم اليه بالتعرض له في مجلسه بما لا يحب ))8 ، فمنذ بداية كلامه جأ الشاعر بالشكوى المريرة من اول بيت ، بل من اول كلمة فهي استغاثة صارخة :

واحر قلباه ممن قلبه شيم

ومن بجسمي وحالي عنده سقم 9

وهو لا يتردد في وصف عاطفته وعاطفة سيف الدولة ، ويتفرق في اختيار الالفاظ لهذا الوصف ، فقلبه مفعم بالحرارة ، وقلب سيف الدولة خامل بالشيم والبرود وهذا البيت هو بداية التمهد الذي يستدرجه شيئا فشيئا ، من خلال الانتقال الى قوله في البيت الثاني والذي يبدأ بالسؤال ، فهذه انما جاءت عن دراية لما يريد وهي فلسفة تعتمد على استخراج الحقيقة من خصومه بالأسئلة التي يوجهها اليهم وهو ما يسمى بتوليد الأفكار من نفوسهم ، وهذا ما عرف في الفلسفة الاغريقية القديمة وخاصة عند سقراط 10. ويتظاهر بأنه يعجب ، من انه يكتم حبه لسيف الدولة ، يتكلف ذلك تكلفا ، مع أن ذلك الحب قد برى جسده ، في حين أن حساده من الشعراء الذين يقربهم سيف الدولة يدعون حبه ويتظاهرون به :

(4)

مالي اکتّم حباً قد برى جسدي

وتدّعي حبّ سيف الدولة الامم

إن كان يجمعنا حبّ لغرته

فليت أنا بقدرِ الحبِّ نفتسمُ 11

ومن الملاحظ ايضا في هذين البيتين التعريض بأصحاب سيف الدولة ، لأن سيف الدولة قد تأثر بكلام أبي فراس وعمل فيه وكان المتنبي غائبا وقد بلغته القصة . والحق أن المتنبي كان يعاني هنا صراعا شديداً ، بين غضبه من سيف الدولة وشعوره بان يمدحه ويطرأه 12 ، فبعد أن تنفّس الشاعر شكواه في هذه الابيات الصارخة يشعر أن لسيف الدولة حقا في مدحه وأن سبب القطيعة

التي يشكو منها المتنبي هو انقطاع مدحه عن الامير ، فتسعه شاعريته القادرة ، وينتقل انتقالا سريعا الى استرضاء وليه ، ولكنه انتقال لا يخلو من مفاجأة ، فليس له تمهيد ، وتكاد تنعدم بينه وبين ما سبقه من الشكوى المريرة ، ولهذا انتقل هذا الانتقال المفاجئ – المفاجئ بمقاييس منطق الفكر ولكن انتقال طبيعي بمقاييس منطق النفس .

المنطق (( السيكولوجي )) الذي لا يخضع للمقدمات والنتائج بل يبيح المتناقضات ويعيش وسط التقلبات التي تخضع للرغبات المتضاربة في نفوسنا ، فقد انتقل المتنبي هذا الانتقال خضوعا لموقف تمليه الظروف التي تتعارض مع ما يجيش في نفسه من الألم ، (( بل ان هذا الانتقال المفاجئ هو التمهيد الحقيقي لما املته لياقته في استرضاء سيف الدولة ، استرضاء مؤقتا بمدحه له بين غضب يسميها كثير من قراء المتنبي عتاباً او اعتذاراً او لا هما تلك التي استهل بها القصيدة ، والآخر يثيرها وشيكا عندما يعتقد انه ادى ما يجب عليه نحو سيف الدولة )) 13 ، وذلك بقوله :

(5)

قد زرتُه وسيوفُ الهنْدِ مغمدة

وقد نظرتُ اليه والسيوفُ دم

وكانَ أحسنَ خلقِ الله كلهُم

وكان احسن ما في الأحسن الشيم 14

ويمكن ان نلاحظ (( ضعف المديح في الابيات هذه مقارنة بينها وبين مدائح المتنبي ، والى اقتصار المديح على صفة الشجاعة التي عرفت عن سيف الدولة ، ولا قيمة لها في الشعراء ان لم يصاحبها الابداع في عرضها )) 15 ، وذلك أنّ المتنبي كانت لديه القدرة على الاتيان بأوصاف ومعاني لا يستطيع آخر الإتيان بها . فقد كان سيف الدولة يميل الى ابي العباس الشاعر المتهور ميلا شديداً ، الى أن جاء المتنبي فمال عنه اليه ، فغاظ ذلك ابا العباس ، فلما كان ذات يوم خلا به وعاتبه ، وقال : كم تفضل علي أبنَ عيدان السقاء ! فامسك سيف الدولة ولم يجبه ، فلجّ ، وألحّ عليه وطالبه بالجواب ، فقال له : لأنك لا تحسن أن تقول :

يعودُ من كل فتحٍ غير مُفتخرٍ

وقد أغدَّ إليه غيرَ محتفلٍ 16

قال : فنهض من بين يديه مغضباً ، وأعتقد ان لا يمدحه أبداً 17 ، والذي أريد أن أقوله أن المتنبي قد جاء بهذين البيتين انما اراد ان يخفف من وطأة غضب سيف الدولة وكذلك لغرض المجيء بما يريده هو وليس سيف الدولة فنجدته يتكلف بأن الممدوح احسن خلق الله ، بما هو شائع من اطراء متداول ، بين ابسط الناس ويوحى اليها بأنه نظم ابيات المديح مرغما لينتهي الى ما يريد ، وأن هذه الابيات مقدمة لقصيدة تعاتب

(6)

وتمدح وتوطئ لثورة الشاعر على سيف الدولة . فيعود ويصرخ مرة اخرى بقوله :

فيك الخصام ، وأنت الخصم والحكم 18

فيتهمه بالجور والظلم ولكن في ضعف (( فقد علم ابو فراس انه يعنيه ، فقال : ومن انت يا داعي كنده ، حتى تأخذ أعراض أهل الأمير في مجلسه ؟ فاستمر المتنبي في انشاده ولم يرد عليه )) 19 ، والمراد قوله : أنه يكشف دون ان يريد ذلك فعلا ، عما في نفسه من مودات وكرهيات وعن ملاحظاته ومصالحه .

في الصور الكلامية ومن خلال هذه الصور التي يأتي بها لينير شيئا ما في أقوال شخصيته وأفكارها مختلفا كل الاختلاف عما نكشفه نحن في هذه الصور بالذات . وهذا ما يؤكد الدكتور جوزيف ميشال شريم بقوله : ( ونحن نعتبر الكلام المجازي التصويري الذي يستخدمه الشاعر ساعات الانفصال بطريقة فكرية ، افصاحاً لاشعوريا الى حد كبير عن مشاعره وعما ينتجه ذهنه وسبل تفكيره وعن صفات الامور والأشياء والحوادث التي يلاحظها ويتذكرها وربما عما لا يلاحظه ولا يتذكره وهو ذو مدلول اهم بكثير من غيره ) 20 ، وعليه يقوم تحليل النص ، عند هذا المستوى ، على تحديد علاقات تقلبها تيه الدراماتيكية على انه تسلسل من الاختزالات الصاعدة والهابطة في اطار النزاع الاساسي .

لذلك تأخذ الذات إلى الجانب المقابل الى نهايته لرد الاعتبار والتعويض . (( انا الذي نظر الاعمى الى ادبي )) ، ثم تتجاوز هذا في الموقف في محاولة اجتياز ميّزات الآخر وسلبها . ( فالخيل والليل والبيداء تعرفني ) ما كما تعرف سيف الدولة الذي كان يجتازها بجيوشه ، ولذا يأتي البيت التالي ( صحبت في الفلوات الوحش منفردا ) أنه لم يصحب بشرا ولكنه صحب الوحش ، ولم يحمه جيش في الفلوات ولكنه اعتمد على سيفه وحده ، ثم تشتد نبرته وهو يحاول ستر نقائضة أو بعبارة اخرى ليعلو

(7)

صوته فوق صوت الذات في موقف ضعفها (( ما ابعد العيب والنقصان من شرفي )) و(( أنا الثريا )) . ثم تهدأ إنفعالاته وهو يتصور الفراق . ويتخيل سيف الدولة نادماً لأنه الطرف الخاسر والجانب الضعيف . فيعقب على ذلك بأبيات تنعكس فيها حالته النفسية المضطربة ، ومتذبذبة بين استرضاء سيف الدولة وإغضابه في غير ترفق ، بعتاب مشوب بالاعتزاز بالنفس ، ويقصف هذا العتاب بأنه كلام قد ضمن الدر : بقوله :

هذا عتابك ، إلا انه مقهة

قد ضمن الدر الا انه كليم 21

والحق أن المتنبي لم يكن في موقف اعتذار أو عتاب ، ولا في موقف مدح ، بل لم يكن في موقف فخر خالص (( واذا كان خاضعا لمجموعة معقدة من الوجدانات ، في وقت واحد او لحظات سريعة متلاصقة ، مما اخرج لنا هذا المزيج العجيب في هذه القصيدة التي ظلت اكثر من الف سنة وهي تثير اعجاب القارئ ، وقل من تلمس ما وراء شاعريتها البارعة من نفسية مظطربة متوثبة )) 22 .

( 2 )

الصورة الفنية

يُعد ظهور هذا المصطلح قديماً وجديداً ، أو متعدد المفاهيم ، إذ تختلف تعريفاته باختلاف اتجاهات المدارس النقدية . وهذا الاصطلاح له الاثر كبير في تقدير الوحدة الشعرية وفي الكشف عن المعاني الجديدة ومتغيرات النفس التي يشير اليها العمل الفني .

(8)

وقد ورد هذا المصطلح قديماً في المعاجم العربية ولكن بمعان مختلفة وبقسمه ، أي المعنى الحقيقي المجازي 23 ، فقد عرف انه من تصريفات ( صور ) المصور وهو من أسماء الله الحسنى 24 . وهو بمعنى الشكل والهيئة 25 وهيئة الخلقة ، ونجده أيضاً عند بداية التفكير النقدي عند العرب . فالجاحظ يرى أن الشعر " صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير 26 ، ويتضح مفهوم الصورة أكثر عند عبد القاهر الجرجاني من خلال قياس المصور العقلي ( اللغوي ) بالمرئي أو البصري ( الحسي ) وذلك بقوله : الصورة وانما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا ، البنيوية بين احاد الاجناس تكون من جهة الصور فكان بين انسان من انسان و فرس من فرس بخصوصه تكون في صورة ذلك 27 .

إما النقاد المحدثون فقد ذكروا تعريفات للصورة تختلف باختلاف وجهات نظرهم وتنوع المذاهب الادبية . فأنها عند ( د. زكي مبارك ) : (( اثر الشاعر المغلق الذي يصف المرئيات وصفا يجعل القارئ ما يدري ايقراً قصيدة مطورة ام يشاهد منظراً من مناظر الوجود الذي يصف الوجدانيات وصفا يخيل للقارئ انه يناجي نفسه لانه يقرأ قطعة شعر )) 28 ، ويتناول ( عز الدين اسماعيل ) الصورة من زاوية فلسفتها بحسب تشكيلها الزماني والمكاني ضمن اسس نفسية ، فهو يرى (( ان القناعة عامة والشاعر في كثير من ( التسوية ) ، فأذا الحقيقة الواقعة امامنا ناقصة وقد تبدو مزيفة غير أن حقيقة الامر لاتشعر به هناك اذ لاتزييف لانه ليس بالضرورة ان يكون الذاتي تكراراً للموضوعي بل الغالب ان يكون للذاتي واقعيته الخاصة وعندئذ يحاول الفنان ان يصنع من الذاتي واقعة من خلال الصورة المحسوسة ، فيبدو هذا الواقع الجديد مغايراً للواقع القبلي المرصود )) 29 ، اما الدكتور (إحسان عباس ) ينظر الى الصورة من جانبين :

الاول : إن الصورة تعبر عن نفسية الشاعر ، وانها تشبه الصورة التي تظهر في الاحلام .

الثاني: إن دراسة الصورة مجتمعة قد تعين على كشف معنى اعمق من المعاني

(9)

الظاهرية للقصيدة ، وذلك لأنَّ الصورة وهي جميع الاشكال المجازية وانما تكون من عمل القوة الخالقة ، فألتجاه الى دراستها يعني الاتجاه الى روح الشعر 30، وهكذا يقرأ الدكتور إحسان بأن الصورة هي تعبير عن تجربة الشعرية أو عن نفسية الشاعر ، وهي تمثل جميع الاشكال المجازية . وبعد هذا العرض الموجز يتبين الفارق بين النقاد القدامى والمحدثين في ارائهم ، فلم تكن الصورة لدى القدامى إلا تمثيل أو وسيلة لتوضيح المعنى ، ممثلة بالصورة البيانية ، التشبيه ، واستعارة ، الكناية بوصفها تقليد للأشياء والأفعال والطبيعة فالشاعر انما يحاكي ماموجود في العالم الخارجي دون ان يولي ( الخيال ) الطبيعة النفسية للشاعر اهمية في تصوير ، فجاءت الصورة مثقلة بالوان البديع من الزخارف والمحسنات أي أصبح المظهر الخارجي هو المعبر عن قوة الشاعر

على حساب المضمون اما المحدثون ، فقد اعتمدوا مقاييس جديدة وموازن في تقويم النتاج الادبي ، تقويم على اساس نفسه غالباً ، فبدت الصورة في صيغة لفظية يعبر بها الاديب عن تجاربه واحاسيسه وجمعت هذه الطبيعة الوان التعبير المختلفة لذا جاءت الصورة مختلفة عما الفناها لدى القدامى التي اتصفت اغلب صورهم بالجزئية . فضلا عن كون المحدثين لايعالجون سطح البناء الفني بل يتغذون الى اغوار القصيدة لان ادواتهم النقدية تقوم على اساس ومقاييس جديدة كالحقيقة والمجاز والصيغ اللفظية وتولي الخيال . فضلاً عن مقاييس نقدية جاءت نتيجة لظهور العلوم النفسية التي تترك بصمات واضحة في الاحكام النقدية وهذا ما أكدته في المبحث الأول ( بين نفسية المتنبي وشاعريته ) ، ونستطيع ان نعترف للمتنبي هنا بمقدرة تصويرية فائقة ، وكذلك انه لايفوتنا ان نسجل انه لم يبتدع فكرة جديدة ، وان كان قد أبدع صورة جديدة فهو كما قلنا سابقاً لم يكن راضياً تمام الرضا عن سيف الدولة (( فهو يعاني قدراً من الصعوبة التي يعانها من يحمل نفسه على القول حملاً ، فيعود الى ما اختزنه عقله من الأفكار ليخرجه في صورة قديمة او جديدة )) 31 ، والدليل على ما أقوله هو هذه القوالب التعبيرية التي صاغ فيها المتنبي الدقة من المديح فهي قوالب التعبير عن التقرير والتأنيب التي

(10)

يصوغ فيها الغاضب في العادة مايريد ان يقوله من اللوم والنقد فهي مقدمة لقصيدة تعاتب وتمدح وتوطئ لثورة الشاعر وحتى لاتكون في طرف ثاني من الموضوع ، فأنا نجد ابياتاً ذكرت في مناسبات شتى بعيدة عن مقاصد الشاعر ومناخه النعشي ، وطبقت عليها المقاييس البلاغية مثل قوله:

يا عُدَلِ الناسِ إِيَّايَ في معامِلتي

فيك الخصامُ وأنتِ الخصمُ والحكمُ 32

وكذلك في قوله :

أعيذها نظراتٌ منك صادقةٌ

أن تحسبَ الشحمَ فيمن شحمهُ ورُمُ 33

فعند مطالعة شرح الصحاب بن عباد نجده يقول : (( إن نظرات صادقة فأعيذها ان تخدعك فتحسب الورم شحماً ، وهذا المثل اراد به ان لايقس من دونه بالمرتبة مقاييسه وان لايعامله كمعاملته ، فهو بنسبة لغيره كالسليم والغير كالسقيم )) 34 ، فللغة الشاعرة اثر واضح في هذه الصورة حتى (( هدف مؤثر يرمي اليه الشاعر وينتقي منها ما هو جديد بأيداع مضامينه وبما فيه من احياءات تصويرية نفسية )) 35 ، لانها عدت في الدراسات النقدية الحديثة (( وسيلة لقياس النص الادبي ووصفه )) 36 ، وهي صورة مبتكرة وقضية الابتكار في ضمن اكثر الدلالات يسراً وشيوعاً تعني قدرة الشاعر في التوصل الى شيء جديد لم يسبق اليه فهي تمثل قضية الخلق الفني الفريد الذي ينهض على علاقات غير مألوفة ، وقد تكون هذه العلاقات مقضيه الى حد الافراط وتجاوز الحدود والاحالة ولكنها في الوقت ذاته ، تدل على موقف فني ، ورؤية خاصة يشكل في عموم معطياتها خصيصة الشاعر وتميزه في التعامل الفني مع اللغة ومفرداتها ، ولايلبث المتنبي ان يوغل في التعريض بقوله :

(11)

وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظره

إذا استوت عندة الأنوار والظلم 37

تدل على موقف ورؤية خاصة يشكلاً في عموم معطياتها خصيصة الشاعر وتميزة في التعامل الفني ومفرداتها 38 .

ويبقى سيف الدولة هو المعنى ايضا في هذا البيت ، فأى صورة هذه جعلت الممدوح العظيم ، بعد ان ابرع الشاعر في تمجيده ، بصدق واخاء ومودة يقع في وهدة الغضب والعتمة . فأذا قرأناه كجزء لا ينفصل عن اطار القصيدة العام ، يكون تعبير ادبي غير مباشر فيه عمومية الاحكام ، الا ان الشاعر قصد به شخصاً معيناً بذاته . وفي هذا البيت ايضا نجد الصورة المبتكرة التي جعلت الطابع المميز بالنسبة للمتنبى في خطابه لسيف الدولة من خلال تشكيل الالفاظ تشكيلاً ينسجم وطبيعة الفكرة ، ويرى الدكتور عز الدين اسماعيل : ( أن الصورة أن تستكشف بمساعدة شيء اخر والمهم فيها هو ذلك الاستكشاف ذاته أي معرفة غير المعروف لاالمزيد من معرفة المعروف ) 39 ، اذن هذه الصورة عنده تفضح عن كشف مسعاه ( خلق لغة جديدة تعرف كيف تداعب التجربة الشعورية والعقلية وكيف تخرجها الى دنيا الشعر ) 40، اما بالعودة الى نفسه فأنا نجد يقول :

سيعلمُ الجمعَ ممنَ ضمَّ مجلسنا

بانني خير من تسعى به قدمُ

أنا الذي نظر الاعمى الى أدبي

وأسمعت كلماتي من به صممُ

(12)

أنام ملء جفوني عن شواردها

ويسهرُ الخلقُ جرّاهُ ويُختصمُ 41

فشاعرنا يقدم نفسه الى سيف الدولة ورهطه ممن حضروا المجلس ، كأنهم لا يدركون من أمره شيئاً رغم السنين التي قضاها في حلب ، بانه خير من الناس جميعاً ومن سيف الدولة واصحابه الذين لا يريد ان يرقى بهم الى مستوى الاعمى والاصم في فهم شعره لانهم ، وقت انشاد القصيدة ، دون ذلك جهلاً وحقداً . ( وهذا هجاء مقذع اتخذ شكل الفخر تسترا كما اتخذت اهانات المتنبى لسيف الدولة في هذه القصيدة ، شكل الحكمة قناعاً ) 42 ، وهذا ما يدفعنا الى القول هناك صورة اخرى في القصيدة ، الا وهي الصورة التقريرية التي نقل فيها المعطيات الدلالية ، وتقرب من المحاكاة للواقع ( فهي تعتمد اكثر على نقل العالم الخارجي في اشكاله الظاهرة والوانه المتعددة ، بحيث تكون الصورة ازاءه مثيرة لقدر ضئيل من احساس المتلقي ومشاعره وجاعلة الاواصر ضعيفة واهنة مع الافكار والمعاني التي تجسدت في جزئيات الصورة ) 43 ، وهذا يعني انه عندما اراد الكلام لنفسه استخدم صورة مغايرة يسهل النظر من خلالها وواضحة للعيان وهي بعكس ما قدمه في الصورة الاولى والتي يحتاج فيها السامع الى تأمل طويل .

اما الصورة المفردة ، فهي ابسط انواع الصور الشعرية ، تقدم تصويراً جزئياً وتعد المرحلة الاولى في التصوير (( لانها تعكف على وصف الجزئيات سوى كانت شكلية او شعرية لتعطيها استقلالاً ذاتياً لا ينفصل عما حوله

((44 وبما يمثلها البيت الشعري الواحد او البيتين ، على ان تقدم تصويراً جزئياً تاماً . وتكون مستقلة بالرغم من فرديتها وبساطتها ، فإنها في موضعها وعلاقتها بالنص ذات اهمية ، اذ ترتبط مع غيرها من الصور لتشكيل القصيدة .

وتدخل طريقة بناء الصورة المفردة في كل انماط الصور الشعرية فنجد صورة

(13)

مفردة نفسية واخرى فلسفية وثالثة وصفية ، لا يخلو نمط الصورة البلاغية والحسية من الصورة المفردة وشعر المتنبي زاخر بالصورة الفردية عامة وخاصة كما في قوله :

اذا رأيت نيوبَ الليث بارزةً

فلا تضنَّ ان الليثَ يبتسمُ 45

وكذلك بقوله :

هذا عتابك الا انه مقه

قدر ضمنَ الدر إلا أنه كُلم 46

فقد بدأ هذه الرفعة من العتاب ببيت يفيض رقة ، ويتدفق عذوبة ، حتى ليكاد المرء يعتقد أن ابا الطيب قد ثاب الى رشده ، وأنه شعر بسوء اثر مانطق به لسانه عن نفسه ، غير انه يبدو أن المتنبي قد جاوزت به الفاظه هدفه .

( 3 )

الإبداع الفني

يُعد الإبداع في العمل الفني هو الاساس الذي تقوم عليه الدراسات الفنية والجمالية ، لأنَّ محورين أساسيين من المحاور التي تبتنى عليها أبحاث علم الجمال إنما يستندان الى ناتج العملية الإبداعية وهما مشكلة التذوق ومشكلة النقد والحكم .

ولا يقوم الفعل الإبداعي الا نتيجة لآليات وعوامل عدة منها نفسية وبإلوجية تحدث داخل الفنان ومنها مايتعلق بالشروط الجمالية التي ينبغي للفنان الالتزام بها ، والظاهر (( ان العمل الفني يولد لأول وهلة من دافع خلاق وانه حر حرية مطلقة ، ولكن ما ان يحاول هذا الدافع ان يتحقق حتى يجد نفسه واقعا في شبكة منسوجة من الضروريات الشكلية ، ومن قوانين منطوق أعلى ، عليه ان يذعن له ))47 وبمعنى

(14)

أدق (( يشير الى القدرات التي تكون مميزة للأشخاص المبدعين ))48. الا ان قيام دراسات أخرى في هذا الاطار أثبتت (( ان التفكير الإبداعي من الصعوبة أحيانا تحديده بمراحل قاطعة حتى ولو كانت متصلة أو في تسلسل ))49 . ولقد أنطوى هذا المبحث على تعيين مواطن العملية الإبداعية لدى أبو الطيب في منطوق فلسفة العتب والاعتذار .

1- التصور والخيال :

يستطيع المرء ان يرى التصور والخيال بأنه قدرة تساعد الكاتب ان يضع أفكاره في عبارات جديدة ومقنعة ولكنها ليست في حد ذاتها قدرة عقلية أذ يقدر الخيال (( ان يستحوذ على خزين الصور الحسية المكدسة في الذاكرة ،

وعندما يكون محكوما بهدف فني يقدر ان يربط بينهما في أنماط جديدة مبهجة (( 50، وهذا ما استحسنته أبو علي الفارسي عندما انشده ابن جني قول أبو الطيب :

وشرماً قنصاً راحتى قنص

شهبُ البزاة سواءً فيه والرحم 51

أذ قال : (( مارأيت رجلا في معناه ... )) 52

ف نجد ان حيوية خيال هذا البيت تأتي من الابتكار والخصوصية في التصور والدقة في التعبير ، لأن هذا الابتكار كما يسميه نوري جعفر - أحيانا - يعني (( الكشف عن رابطة او علاقة خفية موجودة بين شيئين ماديين مألوفين أو رأيين شائعين لم يكشف عنهما أحد من قبل )) 53 ومن الجدير بالذكر ان التذوق الجمالي ليس عملية سطحية بل هو عملية جوهرية تتمثل في تسرب مفاهيم الى اعماق الانسان بحيث يبني عليها سلوكه وتفكيره .

(15)

2- التجربة الجمالية :-

التجربة هي الاساس الذي يحدد عليه النتاج سواء الإبداعي والتي (( لا تقتصر على الخلق والإبداع ، وانما هي تشمل التذوق والمشاركة الفنية )) 54 ، وحينما نبحث عن ذلك الامر نجد له صدى يتردد فهو الذي نستطيع تسميته الغموض الجمالي الذي يستتر ورائه المتنبي بالاعتذار ، فهو لا يصرح بالسبب الحقيقي فتكون له آثار كامنة من جهة الوجدان والمشاعر ، لذلك يمكننا ان نلاحظ (( انه لا يمكن الادعاء باختصار التجربة الجمالية على ما يدرك بالحس فقط )) 55 ، وانما لابد التغلغل الى ما يخفيه المبدع وراء نصه فاذا راجعنا قوله :-

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ؟

ويكره الله ماتأتون والكرم

ما ابعد العيب والنقصان عن شرفي

أنا الثريا ، وذان الشيب والهزم 56

ولعل فيما مضى تأكيدا اضافياً كون التجربة الجمالية ليست وليدة السطح الحسي الثابت أولا .  
ونلاحظ أيضا ان لامحدودية الموضوع فيها ، فان هناك الامتزاج بين الذات والموضوع 57.

3- إبداعية المتنبي :-

تشكل الشخصية المبدعة المحور الهام في بناء هيكلية العملية الإبداعية حيث توجد علاقة وطيدة بين المبدع وبين مادة العمل وموضوعه وفكرته والعاطفة التي يحملها والتي ينبغي الوصول اليها عبر دراسة العمل الإبداعي .  
ويحاول مصطفى سوييف ان يخرج بصورة واضحة عن الشخصية المبدعة أو

(16)

العبقرية من مختلف البحوث ، حيث يرى فيها العبقرى (( شخصا متفوق الذكاء ، يمتاز بحساسيته الشديدة لمعرفة ما ينطوي عليه أي موقف من مشكلات ، فاذا حاول ان ينتج فانه يفضل التجديد ، ويمتاز بغزارة الأفكار والصور الخيالية من زاوية جديدة ، وهو الى هذا كله متفوق في قدرته على تقييم ما ينتج ، ووضعه في الموقع اللائق به من



وقد جاء بتفسيره أبو الفتح عثمان بن جني (( أي جعلوا مكان براقع خيلهم على وجوها حديدا ليقبها الحديد ان يصل إليها ، وجعلوا شعرها من الكماة ، وهم الأبطال هدفاً لرماحهم ))65 . أي ان سيوفهم تحول دون جيادهم ومسّها بطعن أو ضرب أما لمتازلتهم دونها أو لحدقهم بالضرب ، فهي تجري مجرى البراقع لها .  
ومن ذلك قوله أيضا :

واعلم أنني اذا ما اعتذرت إليك أراذ اعتذاري اعتذارا 66

فهو يقدم عزة كريمة وهي (( براعة المتنبي في شاعرية لبقة تكاد تسترها ، لأنه يقول : أنما يعتذر المجرم ، فاذا اعتذرت اليك من غير جرم كان اعتذاري في احتياج الى اعتذار ، لأنه لاسبب له ولا مسوغ ))67.  
حقاً إن المتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس في قوة شعره وتمكنه ، وفي قدرته الفذة على صيانة حكمه والتعبير عن تجربته الحياتية والوجودية ، وفي قدرته الفنية الرائدة لصوغ رؤى العتب حين يشتد به الغيظ والخنق ، وفي رؤى الاعتذار حين يشعر بالذنب الذي هو إثم ترفضه النفس الانسانية الشفافة والمتعالية في الآن نفسه .

(19)

الهوامش

1. ينظر: التطلع اللغوي عند المتنبي، جاسم محمد عبود: 49
2. ديوان المتنبي، ناصيف اليازجي: 224-1/223
3. المتنبي رسالة الى الطريق الى ثقافتنا، محمود محمد شاكر: 236-215
4. ينظر: كتاب العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب، ناصيف اليازجي: 1/46
5. ديوان المتنبي، ناصيف اليازجي: 1/187
6. ينظر: ديوان المتنبي، شرح العكبري: 323، 1/242
7. التكسب بالشعر، د. جلال الخياط: 56
8. ديوان ابي الطيب، شرح العكبري: 3/362
9. ديوان المتنبي، ناصيف اليازجي: 2/638
10. ينظر: الفلسفة لكل الناس، د. عادل العكبري: 64
11. ديوان المتنبي، ناصيف اليازجي: 2/638
12. ينظر: دراسات أدبية، د. مهدي علام: 82
13. المصدر نفسه: 93
14. ديوان المتنبي، ناصيف اليازجي: 2/639
15. المثال والتحول، د. جلال الخياط: 43
16. ديوان المتنبي، ناصيف اليازجي: 2/550
17. ينظر: المتنبي، محمود محمد شاكر: 322
18. ديوان المتنبي، ناصيف اليازجي: 2/640
19. المتنبي، محمود محمد شاكر: 323
20. دليل الدراسات الأسلوبية، د. جوزيف ميشال شريم: 61
21. ديوان المتنبي، ناصيف اليازجي: 2/644
22. دراسات أدبية، د. مهدي علام: 231
23. أساس البلاغة، الزمخشري: 2/31
24. لسان العرب، ابن منظور، مادة صور: 22، 491
25. تاج العروس، الزبيدي، مادة صور: 2
26. ينظر: الحيوان، الجاحظ: 2/132، وينظر، أيضا" (نقد الشعر) قدامة ابن جعفر: 17
27. دلائل الإعجاز، الجرجاني: 23
28. الصورة الفنية معيارا" نقديا" ، د. عبد الإله الصائغ: 135
29. الشعر العربي المعاصر، د. عز الدين إسماعيل: 216
30. فن الشعر، أرسطو: 169

31. دراسات أدبية، د. مهدي علام: 2
32. ديوان المتنبي، ناصيف اليازجي: 2/640
33. المصدر نفسه: 2/640
34. أمثال المتنبي، جمعها الوزير إسماعيل ابن عباد: 150
35. دراسات نقدية ونماذج حول بعض قضايا الشعر المعاصر، د. عز الدين منصور: 63
36. شعرية اللغة واللغة الشعرية، د. سلام الأوسي: 47
37. ديوان المتنبي، ناصيف اليازجي: 2/640
38. ينظر: الصورة المجازية عند المتنبي، جليل رشيد فالح (رسالة دكتورا): 202
39. تفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل: 71
40. تمهيد في النقد الحديث، روز غريب: 191
41. ديوان المتنبي: ناصيف اليازجي: 2/641
42. المثال والتحول، د. جلال الخياط: 45
43. الصورة المجازية في شعر المتنبي، جليل رشيد فالح (رسالة دكتورا): 135
44. الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة دراسة نقدية، د. صالح أبو أصبع: 42
45. ديوان المتنبي، ناصيف اليازجي، 2/641
46. المصدر نفسه: 2/644
47. جماليات الإبداع الموسيقي، جزيل برولي: 12
48. جماليات الفنون، د. كامل عبد: 69
49. المصدر نفسه: 29
50. التصور والخيال، تأليف ر.ل. بریت، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة: 17
51. ديوان المتنبي، ناصيف اليازجي: 2/644
52. ديوان أبي الطيب المتنبي (الفسر)، ابن جني: 27
53. الأصالة في مجال العلم والفن /نوري جعفر: 5
54. ينظر: مشكلة الفن، د. زكريا إبراهيم: 220
55. ينظر: النقد الفني (دراسة جمالية وفلسفية) جيروم ستولنتر: 180
56. ديوان المتنبي، ناصيف اليازجي: 2/643
57. ينظر: مشكلة الفن، د. زكريا إبراهيم: 221
58. العبقرية في الفن، د. مصطفى سويف: 51
59. ينظر: الخصائص، لابن جني: 101
60. ديوان المتنبي، ناصيف اليازجي: 2/824
61. محاضرة للدكتور علي كاظم المشري: كلية الآداب جامعة القادسية 2006
62. ديوان المتنبي، ناصيف اليازجي: 2/650-649
63. ينظر سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب: يوسف ميخايل اسعد: 43
64. ديوان المتنبي، ناصيف اليازجي: 1/257
65. النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام، ابن المستوفي: 131
66. ديوان المتنبي، ناصيف اليازجي: 2/699
67. دراسة أدبية، مهدي علام م: 237

#### المصادر والمراجع

1. أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق عبد الرحمن محمود، القاهرة، ط1، 1953
2. الأصالة في مجال العلم والفن، نوري جعفر، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1979، ط1
3. أمثال المتنبي، جمعها الوزير إسماعيل بن عباد المشهور بالصاحب لسلطان فخر الدولة بن بويه، شرحها وضبط ألفاظها وعلق عليها زهدي يكن، صيدا، بيروت،
4. تاج العروس عن جواهر القاموس، للسيد محمد مرتض الحسيني الزبيدي دار ليبيا للنشر والتوزيع، نيفازي
5. التصور والخيال، تأليف ر.ل. بریت، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، دار الرشيد للنشر 1970
6. التطلع اللغوي عند المتنبي، جاسم محمد عبود، دار الحرية للطباعة، 1976
7. التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل دار العودة، بيروت
8. التكبس بالشعر، د. جلال الخياط، بيروت 1970
9. تمهيد في النقد الحديث: روز غريب، دار المكشوف، بيروت، ط1، 1971
10. جماليات الإبداع الموسيقي: جزيل برولي، ترجمة فؤاد كامل، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والاعلام العراق، بغداد، د.ت، د.ط
11. جماليات الفنون، د. كامل عبد، الموسوع الصغيرة 69، منشورات دار الجاحظ للنشر، بغداد، 1980

12. الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة (دراسة نقدية) ،د.صالح أبو أصبع ،بيروت ،ط1 ،1979
13. الحيوان ،أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ ،تحقيق عبد السلام هارون ،مطبعة الباب الحلي ،القاهرة
14. الخصائص ،أبو الفتح عثمان ابن جني ،تحقيق محمد علي النجار ،دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ،ط1990 ،4
15. دراسات أدبية ،مهدي علام ،دار المعارف ،بمصر ،القاهرة
16. دراسات نقدية ونماذج حول بعض قضايا الشعر المعاصر ،د.عز الدين منصور ،مؤسسة المعارف للطباعة والنشر ،ط1 ،بيروت 1985
17. دلالات الإعجاز ،أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ،تحقيق محمد رشيد رضا ،دار العودة للطباعة والنشر بيروت ،1978
18. دليل الدراسات الأسلوبية ،د.جوزيف ميشال شريم ،المؤسسة الجامعية للدراسات ،ط1
19. ديوان أبي الطيب المتنبي ،شرح لأبي البقاء العكبري ،ضبط تحقيق مصطفى السقا ،إبراهيم الانباري ،عبد الحفيظ شلبي ،القاهرة ،1956
20. ديوان المتنبي ،ناصيف اليازجي ،دار الجيل ،بيروت
21. سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب ،يوسف ميخائيل اسعد ،مشروع النشر المشترك ،دار الوفاق عربية (بغداد) ،الهيئة المصرية للكتاب (القاهرة) ،د.ت
22. الشعر العربي المعاصر ،د.عز الدين إسماعيل ،الفكر العربي ،بيروت ،ط3
23. الفسر ،ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي الفتح عثمان ابن جني ،تحقيق ،د.صفاء خلوصي ،ط1 ،بغداد 1970
24. الصورة الفنية معيار "نقدياً" ،د.عبد الاله الصانع ،دار الشؤون الثقافية ،بغداد ،1978
25. العبقورية في الفن ،د.مصطفى سويف ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،ط2 ،1972
26. الفلسفة لكل الناس ،د.عادل العكبري ،الموسوعة الصغيرة ،الشؤون الثقافية والنشر ،بغداد 1985
27. فن الشعر ،أرسطو ،ترجمة أحسان عباس ،بيروت
28. القاموس المحيط ،مجد الدين الفيروز آبادي ،مطبعة السعادة ،مصر
29. كتاب العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ناصيف اليازجي ،المطبعة الأدبية بيروت
30. لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ،دار الفكر ،بيروت ،د.ت
31. المتنبي رسالة إلى الطريق إلى ثقافتنا ،محمود محمد شاكر ،المؤسسة السعودية ،مطبعة المدني ،بمصر - القاهرة
32. المثال والتحول (أراء ودراسات في شعر المتنبي وحياته) د.جلال الخياط ،منشورات وزارة الاعلام ،دار الحرية للطباعة ،بغداد ،1976
33. مشكلة الفن ،د.زكريا إبراهيم ،سلسلة مشكلات ،مكتبة مصر ،د.ت
34. النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام ، لأبي البركات شرف الدين المبارك ابن المستوفي ،تحقيق د. خلف رشيد نعمان ،دار الشؤون الثقافية العامة ،ط1 ، 1991
35. النقد الفني ،دراسة جمالية وفلسفية ،جيروم ستولينتر ،ترجمة د.فؤاد زكريا ،مطبعة جامعة عين شمس ،1974 ،د.ت

#### رسائل جامعية

- 1- الصورة المجازية عند المتنبي ،جليل رشيد فالح ،رسالة دكتورا ،كلية الآداب ،جامعة بغداد ،1985

#### المقالة والمحاضرات

- 1 شعرية اللغة واللغة الشعر ،د.سلام الأوسي ،مقالة من مجلة الثقافية ،العداد 2 لسنة 2005
- 2 محاضرة للدكتور علي كاظم المشري ،كلية الآداب جامعة القادسية ،2006